

دراسات محكمة

من خطابات الضحك والسخرية في
سياق رأسمالية الوباء

سيدي حسن ازروال

أستاذ الدراسات العربية، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، خنيفرة-المغرب

04 مارس 2022





تلخيص:

عملت الرأسمالية العالمية على استنزاف الفئات النشيطة في المجتمعات (القوى العاملة المباشرة وغير المباشرة) للاستفادة من تركيز الثروات في يد فئة من الرأسماليين الذين لا يمثلون سوى نسب قليلة في مجتمعاتهم مما أنتج نظاما رأسماليا متوحشا؛ لكن كيف تأثرت هذه الرأسمالية بالوباء الذي أخذ يكتسح مناطق العالم؟ خنقت الرأسمالية المتوحشة الفئات النشيطة التي وُضعت رهن تصرفها الاقتصادي؛ غير أن ظهور كوفيد 19 وما حمله من مستجدات سيربطها بلقب رأسمالية الوباء (الانتقال من الاهتمام بصحة الناس إلى الاهتمام بصحة الرأسمال)؛ من هنا كان من المنطقي ظهور خطابات الضحك والسخرية، التي وصفت عدم قدرة الإنسان على تجاوز واقعه المرير، في وسائل التواصل الاجتماعي؛ وتنقسم هذه الخطابات إلى قسمين: خطابات الضحك والسخرية البسيطة التي تحاول أن تقترح نفسها علاجاً نفسياً للتذمر الذي أصاب الناس؛ وخطابات الضحك والسخرية العميقة التي فضحت الوباء الرأسمالي.

Abstract :

Global capitalism has worked to exhaust the active groups in societies (direct and indirect labor forces) to increase concentrate wealth in the hands of a class of capitalists who represent only a few percentages in their societies, thus producing a savage capitalist system. But how has this capitalism been affected by the epidemic (Covid-19) that is sweeping across the world?

Savage capitalism suffocated the energetic classes at their economic disposal; However, the emergence of Covid-19 and the developments it has brought about will link it to the title of pandemic capitalism (the transition from concern for people's health to concern for the health of capital); Hence, it was logical that speeches of laughter and sarcasm appeared, and described the inability of the human being to encroach his bitter reality on social media; These speeches are divided into two parts: speeches of simple laughter and sarcasm that try to suggest themselves as a psychological treatment for the complaint that afflicts people. And speeches of deep laughter and sarcasm that unmasked the capitalist epidemic.



تقديم:

تستمد بعض خطابات الضحك والسخرية موضوعاتها من المواقف والقضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، قصد إحداث تأثير في المتلقي؛ وتعتمد على الإضحاح والتهمك ونقد السياسات الاجتماعية والاقتصادية، أو الشخصيات الرسمية (وغير الرسمية) المؤثرة، أو قضايا الفساد والبيروقراطية وتدني المستويات المعيشية وغير ذلك؛ ولا يعني الإضحاح والتهمك والنقد بالضرورة إنقاصاً من قيمة المنتقد بل قد يكون موجهاً إلى موضع الخلل لأن هذه الخطابات تكون من أقوى أدوات عملية النقد البناء الذي يخاطب جميع شرائح المجتمع. ووجد الإضحاح والسخرية اليوم طريقه إلى وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية وشبكة الانترنت، وارتبط بأهداف ووظائف متعددة اجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها، بغية التأثير في الجمهور المستهدف وصناعة الرأي. لذا تسعى هذه الورقة إلى ملامسة بعض هذه الخطابات التي ارتبطت بمحتوى جديد متمثل في رأسمالية الوباء من خلال عنوان: (من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء). وبما أن موضوع جائحة كوفيد 19 يُعد طارناً وبائياً وصدمة اجتماعية، فإن تناوله وتدارسه يدخل في باب "التقرب من هذه الظاهرة" بدل تعميق النظر فيها في انتظار ظهور قراءات عديدة تتفاعل فيما بينها حتى يكتمل المشهد العلمي في توفير الرؤى المختلفة.

1) خطاب الضحك

يُمكن اعتبار خطاب الضحك¹ من أكثر وسائل التواصل البشري فعاليةً وتعبيراً عن المرح والتسلية التي تُحسّن الصحة الجسدية والنفسية والعاطفية (تحسّن المزاج)، وتقوّي العلاقات الإنسانية المتجانسة اجتماعياً؛ وهكذا يخفّف خطاب الضحك بشكل عام أعباء الحياة ويضيف الحماس إليها، كما أنّ تكراره يُوطد روح الدعابة الإيجابية، ويدعم الصحة الجسدية والعاطفية.

أ) الحاجة إلى الضحك (الضحك والصحة النفسية والعقلية): وتكاد الدراسات النفسية المتنوعة تتفق على أنّ الضحك يريح النفس والجسد على السواء، ويحسّن وظيفة القلب وأداءه؛ ويعزز الضحك المناعة ويبقي من الأمراض المختلفة².

وينبّي الضحك عند الإنسان - الذي يمر بظروف قاسية وبخيبات أمل - الشعور بالرضا والتفاؤل³ لأنه من أكثر الأدوات فعاليةً للحفاظ على العلاقات الاجتماعية وتقاسم التجارب الإنسانية (يجمع الضحك المشترك الناس ويوحدهم في الأوقات الصعبة): عندما نضحك مع بعضنا البعض، يتمّ إنشاء روابط إيجابية في ما بيننا تكون بمثابة عازل قوي ضد الإجهاد والخلافات وخيبات الأمل وغيرها بتلقائية دون أحكام مسبقة أو انتقادات وشكوك.

1 - Matthew Gervais and David Sloan Wilson, The Evolution and Functions of Laughter and Humor: A Synthetic Approach. in Quarterly Review of Biology, Vol. 80, No. 4; December 2005, pages 395-430.

2 - عند الضحك يفرز الإنسان مادة مضادة للأكسدة تحافظ على صحّة الجسم؛ فقد أكد العالم جيرالد كوهين (Gerald B. Cohen) بأنّ الضحك له قدرة فعالة على شدّ العضلات وخصوصاً عضلات البطن. ولا ننسى أنّ الضحك يخفّف من هرمونات التوتر، ويزيد الخلايا المضادة للعدوى لأنّ هذه العملية اللا إرادية تؤدّي إلى إطلاق مادة الإندورفين (Endorphin) التي تخفّف الآلام وتخدرّ مكانم الأوجاع.

3 - Robert R. Provine, Laughing, Tickling, and the Evolution of Speech and Self. in Current Directions in Psychological Science, Vol. 13, No. 6, December 2004, pages 215-218.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

ويغذي الضحك الروح والجسد بما هو طبيعي/ فطري في الإنسان، ويرافقه في مختلف مراحل حياته⁴، ويساعده على التفاعل الإيجابي مع الآخرين (حلّ المشكلات وتحقيق التواصل والإبداع).

(ب) الإقناع بالضحك: يشكل الإقناع بالضحك تحدياً يومياً أمام الفرد في علاقته بالآخرين. فكيف تمرر رسائلك؟ كيف تقنع الآخرين بوجهة نظرك؟ كيف تكسب رهان تواصلك وتقويه؟ وكيف تتصرف مع الناس ليشاركوك الرأي؟ هل الغاية تبرر الوسيلة؟ من يخاطب من؟ هل تعرف الأشخاص الذين توجه إليهم رسائلك؟

لقد ولى زمن يفرض فيه الشخص آراءه بطريقة فجأة؛ وأصبح الإقناع بالضحك يأخذ منحى آخر حاسماً حين يُزاوج بين المرح والرأي؛ وعلى هذا الأساس، يتوجب معرفة ما يلي:

- ما هي العلاقة التي كانت تجمعك بالأشخاص الذين ترسل إليهم رسائلك؟
 - ما هي القواسم المشتركة التي تفترضها في من تتوجه إليهم برسائلك؟ ما المواضيع التي تُقرب بينكم؟ ما المواضيع التي تُفرك بينكم؟
 - ما هي فئات المجتمع التي تتوجه إليها؟ ما هي سلطتهم الحقيقية؟ هل بعضهم في موقع من يتخذ القرار؟ هل يؤثرون في الآخرين؟
 - ما هي طريقة تفكير الآخرين وأولوياتهم؟
 - ما هي عاداتهم واهتماماتهم؟
 - ما هي قيمهم ومحفزاتهم وحاجاتهم؟
 - ما هو مستوى معرفتهم عن الموضوع؟
 - ما هي رهاناتهم؟ وما هي الأشياء التي يركزون عليها؟ وما مدى استفادتهم لو تفاعلوا معك؟ هل توجد إيجابيات وسلبيات واعتراضات...؟
 - هل يتفاعلون مع رأيك أم أنهم دون رأي؟ هل هم قابلون للتجاوب معك؟
 - كيف سيستقبلون حديثك (اقتراحاتك ومواقفك)؟ هل سيتعاملون معها عاطفياً؟ عقلياً؟
 - وخلاصة القول، كيف تنظر إلى من تتوجه إليهم؟ وماذا سيستفيدون من تفاعلهم معك؟⁵
- عموماً، يُراعي المتكلم ما يثير ضحك الناس (المستمعين)⁶ بدءاً من دعايات بريئة إلى سخرية لاذعة للتخلص من الضغوط أو التنفيس عن الطاقة العصبية المكبوتة - حسب تعبير علم النفس- التي تتناول موضوعات شائكة⁷ لا نحتاج معها، بعد ذلك، إلى كبت المشاعر التي تتحول ضحكاً.

⁴ - تبادل النكات مع الأهل والأصدقاء أو القصص المضحكة والمرحة والاختلاط مع أشخاص يملكون روح الفكاهة مع الحرص على تجنب الأشخاص السلبيين وعدم الإسهاب في كل ما يجعل الشخص حزيناً وإمضاء وقت مع الأطفال واللعب مع حيوان أليف وتخصيص بعض الوقت لأنشطة رياضية جماعية ... الخ.

⁵ - Nivoix, Marie-Claude, Lebreton, Philippe, L'art de convaincre. Du bon usage des techniques d'influence, Ed. Eyrolles, 2013.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

ويجب التنبيه إلى أن الضحك أنواع تستعصي على الحصر، ولن نختار منها سوى الضحك الذي يطبع الحقل السياسي والاجتماعي لمقاربة وباء كوفيد 19 الذي أصاب العالم كله؛ وهكذا نتمسك بفرضية الضحك المنتج عوض التهرج الرخيص تبعا للبيئة السوسيو ثقافية للمجتمع التي تؤمن بالتعويض العاطفي (لا نستمتع باقتراف الأخطاء بل نستمتع بتفاديها).

ويعتبر الضحك رائزا مهما يُوضح قدرة الفرد على كشف التناقضات؛ فهو اختبار يرفع من المكانة الاجتماعية: يتيح اكتشاف الأخطاء، وإدراك التناقضات، وتعزيز الروابط الاجتماعية، والشعور بالانتماء إلى المجموعة ذاتها. ولا تجعل الفكاهة المرء يضحك دائما لأنها تخضع للذوق الشخصي الذي تؤثر فيه متغيرات، مثل: الانتماء إلى الموقع الجغرافي، والحساسية الثقافية، ونسبة النضح، ومستوى التعليم والذكاء وملابسات السياق وغيرها؛ وتُستخدم الفكاهة وسيلة للتفاعل الاجتماعي (تخلق روح المشاركة بين الناس) لأنها تبني العلاقات⁸، وتُفسر الأشياء الخاطئة أو المزعجة أو المهددة أو المقبولة أو الآمنة وغيرها؛ وتخفف الفكاهة التوتر وتسهل التعامل مع الضغوط اليومية، والشدائد أو المواقف الصعبة الأخرى في المنزل أو مكان العمل أو مواجهة المشاكل السياسية والاقتصادية⁹ مما يؤدي إلى رفع الروح المعنوية.

ت) لماذا يستخدم الإنسان الضحك؟ ترتاح النفوس إلى الضحك¹⁰ لأنها تفتح النوافذ المضيئة في مسيرة الحياة؛ ولكن لا تهدف دائما إلى الإضحاك بل إنها تقوم بوظيفة النقد والدعوة إلى الإصلاح أيضا؛ فقد سخر الجاحظ من كل شيء في زمانه سخريه لاذعة، إلى حد أنه وجه سهام نقده الساخر إلى نفسه؛ ويجعل الضحك الحياة مرحة وجديرة بالعيش بعيدا عن الأحزان والأشجان، ويخفف من حرقة الانهزام وخيبة الأمل، ويعيد التوازن إلى الذات عن طريق التفرغ النفسي¹¹.

وكما يحدث الضحك بطريقة عفوية، فإن مجريات الحياة اليومية تُرغم على الاستزادة منه نظرا للحالة النفسية المريحة التي تنشأ عنه؛ فلماذا نضحك؟ توجد أسباب كثيرة تستدعي الضحك خصوصا عند مشاهدة الفشل

⁶ - لاحظ كريستيان جاريت -في مقال نُشر في عام 2013 أن العلماء لا يزالون يحاولون أن يفسروا الشيء الذي يثير ضحك الناس على وجه التحديد. وفي الواقع، فإن مفهوم الفكاهة في حد ذاته مفهوم مراوغ. فعلى الرغم من أن الجميع يعرفون -بدهاء- ما هي الفكاهة، وربما عرّفتها القواميس ببساطة بأنها "سمة إثارة الضحك"، فمن الصعب تعريفها بطريقة تحيط بجميع جوانبها. فقد تثير الفكاهة ابتسامة بسيطة أو نوبة ضحك هستيرية، ويمكن نقلها عن طريق الكلمات، أو الصور، أو الأفعال؛ ويمكن أن تتخذ عدة أشكال مختلفة، بدءًا من دعابات بريئة إلى سخريه لاذعة، ومن حركات جسدية مضحكة وكوميديا رخيصة إلى تورية تحتاج إلى تفكير.

7 - Mc Graw A. Peter and Caleb Warren, *Benign Violations: Making Immoral Behavior Funny*. in *Psychological Science*, Vol. 21, No.8, August 2010, pages 1141-1149.

8 - Christian Jarrett, *How Many Psychologists Does It Take ... to Explain a Joke?* in *The Psychologist*, Vol. 26, April 2013, pages 254-259.

9 - Mc Graw A. Peter, *Too Close for Comfort, or Too Far to Care? Finding Humor in Distant Tragedies and Close Mishaps*. in *Psychological Science*, Vol. 23, No. 10, October 2012, pages 1215-1223.

10 - Goldstein, Jeffrey H., et al., "Humour, Laughter, and Comedy. A Bibliography of Empirical and Nonempirical Analyses in the English Language." It's a Funny Thing, *Humour*.

Ed. Antony J. Chapman and Hugh C. Foot. Oxford and New York: Pergamon Press, 1976, pages 469-504.

¹¹ - يعاني 180 مليون شخص في أمريكا وحدها من الاكتئاب. وتقول دراسة حديثة: إن دقيقة واحدة من الضحك تعادل 45 دقيقة من الاسترخاء، وينصح الخبراء بمشاهدة فيلم هزلي قبل النوم وأن يجبر الإنسان نفسه على الضحك أمام المرأة.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

البسيط الذي يُمنى به الإنسان من خلال حدوث مفاجآت غير متوقعة أو ظهور صدف عارضة أو مواجهة بعض المواقف الحرجة أو مشاهدة مفارقة جديدة (الفرق بين ما ينبغي أن يكون وما يحدث فعلاً) وغير ذلك. ويستخدم الضحك نفسه لصناعة المزيد منه في وضعيات إنسانية كثيرة؛ لكن ما يهم، في هذا المقام، التركيز على الضحك تعبيراً عن السخط والضيق والتفاعل على المستوى الاجتماعي والسياسي (إدانة المشاكل)، أي: رفض من يستعمل السلطة قهراً ومحاربتة. ولا يعني الضحك اختفاء المأساة الإنسانية في الحالات السلبية، بل هو تجاوز مؤقت للآلام والأحزان وكثرة المشاكل في شكل مثل عربي يقول: شر البلية ما يضحك¹².

2) خطاب السخرية: لا يزال مفهوم السخرية يطرح إشكالية في الفهم والتعريف والتوصيف، ولم تشفع أصالة هذا الفن وعراقته - الذي يرجح أغلب المهتمين به أنه قديم قدم الكتابة وفنونها وطرائقها- من تجاوز أسئلة الماهية التي تحاصره وغيرها.

أ) تعريف السخرية: تستعمل السخرية ألفاظاً تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة؛ وتعد (السخرية) شكلاً من أشكال النقد اللاذع في صورة ضحك واستهزاء؛ ويكون غرض الساخر هو النقد أولاً والإضحاك ثانياً بوضع الإنسان أو الشيء في صورة مضحكة بواسطة تضخيم العيوب والنواقص تهكماً؛ وتحفز السخرية التفكير الإبداعي وتفك الشفرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية وغيرها، لأنها انفعال وغضب ضد الأشمأزاز الذي ينتابنا (تثير فينا شعور الدفاع عن النفس).

ويحتاج المبدع عادة إلى السخرية مستفيداً من لغة ثانية تبعد صاحبها عن الخطر، وتفتح مجالاً واسعاً للخوض في الممنوع، وتجاوز الخطوط الحمراء في الكتابة الجدية المباشرة أو الأداء التمثيلي الصريح. ولم يخل عصر من العصور من هذا الفن، وإن كان ذلك بصيغ مختلفة وقوالب متباينة، تأتي في الأغلب مناسبة لمتغيرات السياق الاجتماعي والثقافي وخصوصياته.

ويعتبر الضحك جزءاً من السخرية إذا كان يهدف إلى الإضحاك فقط وهو ما يطلق عليه الفكاهة؛ أما إذا كان الضحك يسعى إلى إيلاء الآخرين والنيل منهم والاستهزاء بهم فهو السخرية عينها. وتملك السخرية وظيفة فنية غير مباشرة في الهجوم على الآخر لأنها تتواجد في معظم الخطابات الإنسانية، مثل: المحادثات اليومية والرأي الشائع والنكات والأدب والكاريكاتور وغير ذلك¹³.

¹² - كل هذه المواقف وغيرها لا يمكن أن يكون الضحك فيها وليداً لحادثة سارة. بل ثمة حالات ومواقف مَرَضِيَّة ينم فيها رد الفعل بالضحك عن الاضطراب النفسي المؤقت مثل الضحك الهستيري، ونوبات الضحك البديلة عن التشنج التي لا تكون خلالها سيطرة العقل كاملة على السلوك. ويصادف الأطباء في العيادات النفسية بعض الحالات التي يكون فيها السرور المَرَضِي واضحاً ولا يملك الطبيب المعالج إلا أن يتفاعل معها بانسراح مماثل، مثل حالات الهوس الذي يَسْبَى أحياناً لوثنة المرح، وحالات أخرى لا تسبب للطبيب المعالج هذا الإحساس على الرغم من أن المريض يقهقه عالياً ولكن ضحكاته لا تثير أي تعاطف، مثل مرضى الفصام العقلي.

¹³ - السخرية فن السهل الممتنع؛ فالساخر الناجح ينأى بنفسه عن التهريج والتسطيح والقهولة وفي المقابل يغوص في الدعابة والمرح لإنارة العقول، وإذكاء الوعي وإيقاظه، وبث الرسائل إلى من يهمه الأمر. يمكن أن يأتي هذا الفن في صيغة نص أدبي مكتوب أو رسم كاريكاتوري أو أداء تمثيلي أو غير ذلك من



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

ب) تجسيد السخرية: يبدو أن جميع الشعوب والحضارات عرفت السخرية بشكل من الأشكال من خلال الأدب الساخر، مثل القصص والمسرح والنكت والشعر وغيرها؛ ثم انتقدت (هذه الشعوب) مختلف أنظمتها وأحوال أفرادها ومعيشتهم في سخرية هادفة تعبر عنها أعمال متنوعة تولت نقل الرسالة المؤلمة في نقد الواقع نقداً إيجابياً؛ وتصدرت سخرية المحاكاة جميع صور السخرية التي انتشرت منذ القدم؛ فهي محاكاة في الكلام والمشى والحركات الجسمية وأنواع السلوك المختلفة، أي في السمات البارزة التي تميز شخصية من الشخصيات:

- سخرية محاكاة الصوت: هي سخرية تعتمد على تقليد الصوت برفعه وخفضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالباً ويعرف صفاتها التي لا يمكن أن ينقلها القلم إلى النص؛

- سخرية محاكاة تحقيق الصوت: هي سخرية تعتمد على انفراج أسارير الوجه وتحريك عضلاته، أو هز الرأس أو الكتفين أو الغمز بالعين وغير ذلك؛

- سخرية محاكاة توظيف جميع الحواس: هي سخرية تعتمد على كل الحواس دفعة واحدة وتستنفدها. إن السخرية، إذن، هي الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه الضحك، والذي قد يكون بالمحاكاة في القول والفعل، أو يكون بالإشارة والإيماء؛ فهي الفن الذي يؤاخي بين العفوية والذكاء في وقت طالما اقترنت فيه العفوية بالسذاجة والسطحية والاستغفال. وتتجسد السخرية في صور، منها:

- تحويل موضوع دنيء إلى موضوع نبيل؛

- تحويل موضوع نبيل إلى موضوع دنيء؛

- عدم إعطاء أهمية للشخص؛

- اعتماد أسلوب التعريض؛

- المبالغة في التصوير (الكاريكاتوري) بوضع الشخص في صور مضحكة بتشويهه؛

الأنماط الفنية المعروفة. فهو أدب أو فن قائم على المفارقة أو النقد اللاذع لسلبيات الواقع المعيش أو المثير للضحك أو المقدم أحداثه وسردياته بشكل غير متوقع أو مبالغ فيه يمكن أن يتدرج في دائرة الفن الساخر ما دام أن هذا الفن حاضر فيه ألا وهو المفارقة.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

- التندر بالتلاعب اللفظي الذي يُكسب الألفاظ معاني غير معانيها الواضحة؛

وتعتمد السخرية على قوة أداء الفنّان ونزعاته التعبيرية، وعلى استخدام الجسد والانعطافات الأسلوبية للسّمات الخطابية، أو على الصورة المرئية أو قلم الرصاص وغير ذلك، لتأسيس مكانة فنيّة وموقف يحدد وظيفة الفنّ بوصفه أحد أهمّ أدوات إعادة تشكيل المخيال الشعبيّ والقيم الجمعيّة؛ فالسخرية تعبير عن الصعوبات التي يواجهها الناس في حياتهم، ومكافحة حزنهم الرتيب في أسلوب "مرح كئيب"، هو بالأساس، أحد أهمّ فنون التعبير عن التمرد والرفض والمقاومة الإنسانية للألم؛ لقد تطوّر استخدام فنّ السخرية بوصفها أداة نقديّة للواقع، واجتمعت الفكاهة بالهزل مع الرغبة في ممارسة حقّ إبداء الرأي الحرّ، فكانت السخرية سيّدة الموقف تجسيدا للمعارضة والسلطة العفوية المضادة، في قالب فنيّ متميز للضحك الواعي.

(ت) من ضحك الفكاهي إلى سخرية الساخر: عندما تتوجه إلى أشخاص لا تعرفهم، ستصرف كأنك ممثل يصعد إلى الخشبة ليرضي متلقين كثير؛ والجمهور/ الناس هم من تتوجه إليهم: كيف سيكون التواصل معهم؟ يتوجب أن تنتبه إلى مركزية علامتك الجسدية مثل الابتسامة والحركات والهيئة التي تصل إلى الآخر (المتلقي) عبر مظهرك ونظرتك وكلماتك وخطواتك التي تخطوها وكل ما يدل على هويتك؛ تنجز هذه الأشياء إذا كنت تتحدث إلى هؤلاء المتلقين؛ وقد تتوجه إليهم بالصورة والصوت أو الصوت فقط وما إلى ذلك.

ويؤثر الهندام في حقل الرؤية؛ ثم يليه تأثير الوجه والنظرة والابتسامة؛ إذن، نحن نهتم بمظهر الشخص قبل أن نهتم بأقواله حين يتعلق الأمر بالصورة والصوت.

وتخبر الابتسامة بأسرار كثيرة، منها:

- أنا أحترمك كثيرا؛

- أريد أن أمهرك ... قليلا، كثيرا، أكثر؛

- أنا مثلك أو مختلف عنك؛



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

- أنتعي إلى وسط كذا أو قطاع كذا؛

ويفضل الناس الشخص البشوش¹⁴ على الشخص العابس، لأن البشاشة تشيع الود. وتحيل البشاشة والابتسامة على نوع الاستقبال: "أنا سعيد لرؤيتك... أنت تعجبني... أستقبلك بكل فرح؛" وهكذا تفرض على متلقيك حسن الإصغاء. وعندما تبتسم إلى الغرباء أمامك، فهم يردون الابتسامة رغم أنهم لا يعرفونك؛ وقد يحدث أن ابتسامتك الواسعة والسخية واستعدادك المسبق لاستحداث البشاشة وما ستجنيه من العرض، كل ذلك، يجعلك بارعا وفائزا.

وعندما تريد أن تعرض شيئا معيناً، ما هي الصورة التي تريدها لنفسك؟ تعبر الصورة عن الشخص أكثر من تعبير الخطابات الطويلة عنه؛ فهي وسيلة فعالة للإفصاح عنك. فإذا كانت الحركات هي التي تنصدر الكلام، فإنها تقوي رسائلنا؛ ولهذا يجب تأطير الخطاب بحركات قوية وجيدة تخلق الانسجام في كل مراحل التواصل:

(1) تعرف على المتلقين المستهدفين؛

(2) حدد هدفك: الإقناع، الإخبار، تقديم المساعدة في اتخاذ القرار وغير ذلك؛

(3) أخط بانتظارات المتلقين المحتملين؛

(4) فكر في موضوع يتلاءم والوضعية التواصلية؛

(5) كن واعياً بما هو مهم في تواصلك؛

(6) اجعل المعلومة تخضع للتصميم؛

(7) حدد، بدقة ما يجعل اختيار محتوى المعلومة اختياراً فعالاً وجاذباً؛

وهكذا يتوجب الحذر في أثناء نقل الرسالة التي نرغب في إيصالها إلى المتلقين، وهي رسالة تُنجز بطرق متنوعة حسب رغبة المتكلم (الساخر) من خلال عرض مباشر أو عرض غير مباشر عبر الوسائط الحديثة.

¹⁴ - «Celui qui ne sait pas sourire ne doit pas ouvrir un commerce» Proverbe



(3) نماذج من الضحك والسخرية

أ) سخرية التراكمات: يمكن القول إن الضحك والسخرية من سمات الإنسان الجوهريّة؛ فإذا كان الضحك يحقق سعادة الفرد المباشرة، فإن السخرية تنبهه إلى نقائص تشوب الواقع؛ فقد تناقلت الألسن مواقف ضاحكة وساخرة في فترات متتالية، مثل سخرية الفيلسوف سقراط من قاتليه عند تجرعه كأس السم، جوابا على حيرة مريديه بقولهم: "من المؤسف أيها المعلم أن تموت دون ذنب ارتكبته"، فيرد ضاحكا: "وهل تظنون أن الموت كان يمكن أن يكون أسهل لو كنت مذنباً". وأيضا سخرية أحد رجال الثورة الفرنسية من خصومه وإضحاك الحضور حين قال قبل إطلاق الرصاص عليه مخاطبا من يتولون التنفيذ: "رصاصه واحدة تكفيني ودعوا الباقي لأبرياء آخرين".

يخلق الموقفان أعلاه مفارقات كبيرة تلغي الحدود بين الموت والحياة مما يجعل القارئ منذ أول تلقيه للقول الساخر يميل إلى الضحك ما دامت غرابة المسألة تنبع من موقف الساخر نفسه الذي لا يبالي بالموت؛ لكن القارئ يميل فجأة إلى الحزن حين يستوعب المصير المأساوي الذي ينتظر هذا الساخر وكيف ستفقد الإنسانية بناء حقيقيين للحضارة.

ومن بين المواقف الساخرة الأخرى ما يحكى عن رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل (السمين) الذي قال لبرنارد شو (النحيف) ساخرا: "من يراك يا شو يظن أن بريطانيا في أزمة غذاء"، فما كان من هذا الأخير إلا أن أجاب بسخرية أقوى، قائلا: "ومن يراك يعرف سبب الأزمة". فسخرية برنارد شو لم يسلم منها المقربون منه حين زاره - ذات يوم - أحدهم في منزله؛ وعندما دخل عليه حجرتة وجدته يتحدث مع نفسه، فقاطعه قائلا: "أتتكلم مع نفسك؟" فرد عليه برنارد شو: "نعم إنها عادة، فقد اعتدت منذ الصغر أن أتحدث كل يوم مع شخص ذكي".

يعبر برنارد شو عن الإنسان الذي لا يصبر على إهانة الناس له؛ فهو لا يعتمد إلى إبداء الآخرين، لكنه لا يتواني في الرد عليهم بقوة حتى يفحمهم. وتتشابه هذه المواقف الساخرة مع غيرها إذا كان الهدف دفع التعنيف مثل ما أقدم عليه المتنبي حين تعرض لإحراج من قال له: "رأيتك من بعيد فظننتك امرأة"، فرد عليه المتنبي بقوله: "وأنا رأيتك



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

من بعيد فظننتك رجلاً". ونظير ذلك أن أعرابيا أكل عند أمير وكان شرها في أكله. فقال الأمير: "لم تأكل الخروف كأن أمه نطحتك؟"، فرد عليه الأعرابي ساخرا: "ولم تشفق عليه كأن أمه أرضعتك". ومثله حكاية الرجل الذي رأى امرأة فقال لها: "كم أنت جميلة"، فقالت له: "ليتك جميل لأبادلك نفس الكلام"، فقال لها: "لا بأس أكذبي علي كما كذبت عليك".

استطاع الساخرون أن يبتسموا، حين تكثر الإساءة، ابتسامة أقوى أثرا من الحزن؛ فالسخرية لونها صعب الأداء لأنها تتطلب موهبة خاصة وذكاء حادا، وتتجسد في كلمات ومواقف ساخرة. وهنا يُحذر النقاد المبدعين ويسترعون انتباههم إلى وجوب التعامل مع الفن الساخر من خلال مسافة ضرورية تسمح بالتفكير في ما يتلقاه الجمهور لتأمله وتجويده باعتباره (الفن الساخر) فنا تنبع أهميته من محتواه وليس من اسم صاحبه.

ب) سخرية طارئة (سخرية وباء كوفيد 19): يمتلك الساخر أخطر سلاح (الأشكال العفوية للنقد بالضحك)؛ لكنه يفضلّ الوخز بالإبر بكشف بعض ما هو مستور من ممارسات السلطة؛ فالساخر شخص فكاهي يتمتع بموهبة فطرية، غير أنّها بحاجة إلى أن تصقل؛ وهكذا يمد الناقد يد المساعدة للساخر في:

- دراسة قضايا خطاب السخرية من الناحية العلمية لتوضيح المقومات التي يعتمد عليها الساخر من أجل فرض خطابه التهكمي في الذم السياسي؛

- بحث الجوانب الفنية والمهارات التي تقوي أداء الساخر، وتجعل السخرية مرآة واعية ووجهات نظر يتنفس عبرها الفكر؛

- بحث القوانين التي يقتضيها النصّ الساخر من استبطان المعاني إلى خلق التساؤلات والمفارقات التي تؤسس الوعي؛

- بحث نفاذ تقنيات الساخر وتأثيره في الفضاء العام في وسائل التواصل العديدة التي تؤسس الوظيفة التصحيحية؛



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

- دراسة نماذج السخرية في التجارب الإنسانية وأشكالها، سياقاتها وشخصياتها، رهاناتها السلطوية وأهدافها الفنيّة وغيرها؛

- بناء اتجاه نقدي يؤسس ما يسمى النقد الساخر؛

- منع السخرية السلبية التي تستخدم التهريج عوض النقد البناء.

وسنكتفي بالحديث عن سخرية تلقائية وعفوية نشأت في مواقع التواصل الاجتماعي؛ وهي ليست سخرية ناضجة تماماً بسبب ظروف الوباء الطارئة مما يفرض علينا أن ننتظر انتقال السخرية من الوباء إلى المجال الأدبي خاصة والإبداعي عامة؛ وهذا ما يدفع هذه الورقة إلى استباق الأمور من خلال ملامسة هذا الموضوع.

يمكن القول إذن، إن العرب يواجهون فيروس كورونا بحالة من السخرية وإطلاق النكات، في محاولة لتبديد المخاوف منه، خصوصاً في ظل الظروف المتواضعة للحكومات ومحدودية استعداد القطاعات الطبية لمواجهة هذا الوباء؛ فقد تعرضت اقتصادات البلدان المرهقة أصلاً لحالة من الركود التام الذي تزامن مع فرض حظر التجول خشية تفشي العدوى؛ وكلما عجزت الشعوب عن إيقاف العدوى التي تنتشر بينها، أو اضطرت إلى تحمّل هذا الواقع في ظروف العزل، فإن النكتة هي واجهة ذات فعالية تشهد على قدرة الضحك على استعادة بعض السيطرة والتواصل؛ فهي صوت اجتماعي يربط الناس في مواجهة كورونا بالسخرية وإطلاق النكات.

فقد ضجت مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي بمقاطع فيديو مضحكة ونكات عميقة عن فيروس كورونا، فالتف الناس حولها ضد الوباء، واستعادوا تواصلهم البشري الذي فقدوه بسبب الحجر المنزلي في الأزمة؛ فقد تناقلت مواقع التواصل الاجتماعي نماذج ساخرة ترافق انتشار فيروس كورونا، منها ما يلي:

أطلق ناشطون مصريون إنتاجات ساخرة تتناول الأخبار المتلاحقة عن الفيروس منتقدين ما وصفوه بالتعظيم الحكومي والتعامل الرسمي مع الأزمة، وتكميم أفواه الصحفيين المنتقدين للأرقام الرسمية. وصنفت مصر، بعد ذلك، بؤرة خطر ومصدر الإصابات مما أدى إلى منع دخول المصريين إلى كثير من الدول، فتنامت السخرية السوداء جراء ذلك. وعلّق مغرّدون بسخرية لاذعة على قرار الحكومة المصرية تقديم مساعدات طبية لدول أخرى



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

مثل إيطاليا، في حين يحتاج الشعب المصري إلى هذه المعونات من الأدوات، معتبرين أن الكثير من المستشفيات في مصر أماكن غير صالحة للعلاج أصلاً، وهناك نقص حاد في معدات الكشف عن الإصابات في البلاد، وأرقام مهولة عما هو معلن عنه لو تم إجراء الفحوصات بشكل أوسع. وأطلق المصريون مبكراً سيلاً من النكات على تصرفات وزيرة الصحة عندما توجهت إلى المستشفى المخصص للعزل الصحي مرتدية الكمامة بطريقة خاطئة؛ ورغم تأكيدها أن الأمر كان مجرد تجربة، فإن ذلك لم يشفع لها من اتقاء سيل التغريدات والرسوم الساخرة. وتعرضت الوزيرة نفسها إلى سخرية حادة عندما ذهبت إلى الصين خشية تفشي الفيروس، في تصرف لم يُقَم به المسؤولون في دول أخرى. وتندّر نشطاء مواقع التواصل على مظاهرة خرجت في الإسكندرية ضد فيروس كورونا، منتقدين التجمع في الشارع في الوقت الذي ينادي فيه الجميع بضرورة التزام المنازل لمكافحة انتشار الفيروس، حيث اعتبروا هذا التجمع بؤرة للعدوى وانتقال الفيروس. ووجد الساخرون في اسم الفيروس، المشابه لنوع من أنواع الشوكولاته المصرية، مادة للسخرية، مما أشعل منصات التواصل الاجتماعي بتناقل اسم الفيروس؛ ثم تطورت السخرية في نكت، مثل: "يعني يا ربي يوم ما نموت نموت بفيروس صيني مش أصلي"، في إشارة إلى أنّ المنتجات الصينية، في الغالب، هي تقليد وأنّها أقل جودة؛ أو "الكوميكس" الذي ينظر فيه شاب إلى الفيروس قائلاً: "لو جيت مصر إحنا هندمرك"، ويتفكّهون على ما يعرضه التلفزيون المصري من وصفات للتداوي بالثوم والشلولو والليمون وأشياء غريبة أخرى؛ أو تلك المقاطع المصورة لمواقف من المفترض أنّها مُضحكة، يسجلها بعض الهواة طلباً للإعجاب والتقاسم، مثل: المشهد الذي يجلس فيه شاب وسط مقهى ثم يعطس ويسعل، ويلعن السفر إلى الصين وليته لم يسافر الأسبوع الماضي، ممّا يدفع الجالسين إلى الهروب من حوله.

وتداول ناشطون جزائريون صورة لشخص ارتدى قناعاً من البصل عوضاً عن القناع الطبي. ووصفت تعليقاتهم الساخرة كيف تغيرت بعض عاداتهم خلال أيام الحجر المنزلي، فانتشرت صور لرجال يطبخون بدل زوجاتهم، أُرِفقت بتعليق ساخر يقول: "قشر الجلبانة خير ما تروح للجلبانة" أي: "قم بتقشير البازلاء بدل أن تذهب إلى المقبرة." ورفض ناشطون جزائريون، في تعبير احتجاجي، رفع أسعار مواد الوقاية الطبية مثل الكمامات والقفازات،



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

وتداولوا فيديو لشاب يتجوّل في العاصمة الجزائر مرتدياً كيساً بلاستيكيّاً أخضر اللون من الحجم الكبير، عوضاً عن ارتدائه الأدوات الوقائية المعروفة (القفازات والكمّامات). ووجهت انتقادات لقناة جزائرية خاصة، مؤخراً، انتحل صحفيوها صفة أطباء، ونزلوا إلى شوارع مدينة وهران (غربي البلاد)، لتصوير برنامج كاميرا خفية حول كورونا، تحضيراً لبثه في شهر رمضان؛ وعمد أصحاب البرنامج إلى فحص المارة والادعاء بأنهم مصابون بكورونا، الأمر خلّف غضباً واستياء وسخرية بين الجزائريين.

وواجه اللبنانيون وصول الفيروس إلى بلادهم بحالة من الكوميديا السوداء، إذ رأى البعض أن هذه هي "نهاية العالم" و"بداية القيامة"؛ في حين اعتبر آخرون أن فيروس كورونا غير مرغوب فيه في لبنان، لأن البلاد تعاني في الأصل من "كورونا السلطة". وانتشرت عشرات مقاطع الفيديو، في ظل "الحبسة" داخل المنازل منعاً لتفشي الوباء، تُظهر لبنانيين يحتفلون ويغنون على شرفات المنازل، كنوع من التسلية والتضامن الجماعي عن بُعد. وتأثر التفاعل مع الفيروس أيضاً بالحراك السياسي الذي ظل يشهده لبنان لعدة أشهر قبل وصول فيروس كورونا إليه؛ وانتقد (التفاعل) أيضاً الحضور البارز لإيران في المشهد السياسي اللبناني في ظل كورونا. ففي البلد الذي عرفت أول إصابة الطريق إليه عن طريق شخص قادم من إيران قبل أن تتوالى الحالات، ركز بعض رواد مواقع التواصل على هذه النقطة وتعاملوا أيضاً معها بسخرية. فقد كتب أحدهم على فيسبوك معلقاً: "حتى إنت يا كورونا؟ كل العالم إجاهم كورونا من الصين إلا نحنا إجانا من إيران".

وعقب الإعلان عن تسجيل أول حالة إصابة بفيروس كورونا في المغرب، انتشرت المنشورات والتغريدات الساخرة، على منصات التواصل الاجتماعي، بل إن السخرية تطورت إلى ذكر انتقال بعض المواطنين إلى المستشفى الذي يوجد فيه المصاب الأول لمشاهدة كورونا. وانتقدت إعلامية مغربية في تدوينة لها السخرية من كورونا قائلة: "لم أفهم كيف أن فيروس كورونا خلق خوفا ورعبا عند الناس حول العالم وعندما جاء إلى المغرب ردوه ضحك وتقشاب". وأطلقت مجموعة كوميدية تدعى "سكيزوفرين"، أغنية حول "كورونا"، بشكل هزلي؛ في حين، علق ناشطون على صور ازدحام وجلبة أمام مدخل الحافلة قائلين: لم يترك هؤلاء منفذا لكورونا لولوج الحافلة. وقال



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

آخرون ساخرين من ارتفاع حالات الإصابة في مدينة القنيطرة: كدنا نصل إلى 10000 حالة إصابة في المغرب بسبب القنيطرة؛ إذن يلزم تغيير زيت السيارة (في إشارة إلى تغيير زيت السيارة كلما قطعت مسافة طويلة). وتهكم ناشطون على منظر تجمهر الناس في مكان ضيق تاركين دوائر جيرية رسمتها السلطات لاحترام مسافة التباعد، بل وضعوا في هذه الدوائر أحذيتهم لينظموا ترتيب مرورهم أمام الشباك.

وقال رئيس الحكومة التونسية في الكلمة التي ألقاها في جلسة عامة في البرلمان: "هناك دول عظمى استسلمت أمام الوباء وقالت استنفدنا الحلول في الأرض ومنتظر الآن حلول السماء"؛ والمقولة المنسوبة إلى رئيس الوزراء الإيطالي لم تكن صحيحة، واستشهد بها رئيس الحكومة التونسية - رغم ذلك - مما أثار جدلاً واسعاً. وتعثّر رئيس البرلمان التونسي في نطق لفظ الكورونا، فعوض أن يقول الحرب على الكورونا قال الحرب على الكورينا ثم الكورنا.

وخرج الرئيس ترامب -الذي يُثير الخلافات مع الصحافيين، أو مع الحزب الديمقراطيّ المعارض- بفتوى ينصح فيها المُصابين بفيروس الكورونا بشرب أو حقن أجسادهم بالمُطهرات الكفيلة بالقضاء عليه في دقيقة واحدة فقط، الأمر الذي أثار حالة من الدّعر ليس في صفوف الخبراء في عالم الطبّ، بل أيضاً في أوساط الشركات المنتجة لهذه المواد المُطهرة، التي سارعت، خاصة شركة "ريكيت بينكيرز" التي تصنع أبرز ماركاتها (الديتول)، إلى إصدار بيانٍ تُحذّر فيه النّاس من تناول مَنوجاتها، شُرباً أو حَقنًا في أجسادهم. ورُوّج ترامب لاستخدام عقار مُضادّ للملاريا يُعرّف باسم "هيدروكسي كلوروكين"، فقال إنّه هديّة من السّماء يقضي على فيروس الكورونا فوراً رغم عدم ثبوت فعاليّته الفورية لمن يتناوله مثلما يقول العلماء. ولم يتردّد ترامب في الإقدام على أيّ خطوةٍ تُحوّل الأنظار عن فشل إدارته، والسياسات التي يُمكن أن تحوّل دون فوزه بولاية ثانية في الانتخابات، بما في ذلك تصعيد التوتر ضدّ إيران، وتفجير مُواجهةٍ عسكريّةٍ معها، بافتعال أيّ ذريعة "تحرّش" في الخليج ومضيق هرمز حيث المئات من سفن بلاده الحربيّة، ومن غير المُستبعد أيضاً قيامه بالتّصعيد ضدّ الصين قريباً. وقال والتر شوب المدير السّابق لمكتب أخلاقيّات الحكومة الأمريكيّة في سخرية لاذعة: "من غير المفهوم بالنّسبة إليّ أنّ هذا المَعْتوه يشغلُ المنصب الأعلى في الأرض، وأنّ هناك أغبياء يعتقدون أنّ هذا الأمر جيّد". ربما الأمر الوحيد الذي أصاب فيه الرئيس ترامب هو أن



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

حقن المطهرات المنزلية سيؤدي فعلا إلى قتل فيروس كورونا في جسم المصاب ولكنه سيقتل حامله أيضا وفي دقائق معدودة.

نُسجل خصوبة الخيال الجمعي في تناول جائحة كورونا مما قاد إلى انتشار السخرية في جميع بقاع العالم؛ ولم تقف هذه السخرية عند فئة اجتماعية بعينها، بل استمرت تتدفق من أفواه كبار المسؤولين والرؤساء في العالم؛ وكان الهاجس الذي يتهدد الأفراد أن يحين موعد وفاتهم في طابور يبتلع الناس جماعات وسط تضارب الآراء بين مؤيد لفكرة المؤامرة ورافض لها. وعندما يطلب الرئيس الأمريكي حقن الناس بالمطهرات الكيميائية، ينعدم حس المسؤولية من رجل يقود أقوى دولة في العالم خصوصا أن الوباء طرق أبواب الولايات المتحدة التي بدأت تحصي خسائرها من الناس. وتغذت فكرة المؤامرة من سياسة اللامبالاة التي تنهجها بعض الدول من خلال أفعال تمنح الأولوية لصحة الاقتصاد على حساب صحة البشر، أو التسابق الإرادي في مجال البحث العلمي لاكتشاف لقاح قادر على تعزيز رصيد الصناعة الصيدلانية المهيمنة من الأموال.

(ت) تركيب: التجأت شعوب دول العالم الثالث على الخصوص إلى إطلاق النكات والتندر على الوباء، لأنها فقدت السيطرة والتواصل فيما بينها خلال هذه المعركة بسبب تراكمات ماضية ومستجدات آنية: عدم الاستقرار والاستعمار وتتابع الحروب (سيادة التخلف، وارتفاع المديونية) والأزمات السياسية والاقتصادية التي لا تنتهي (إفلاس الاقتصاد من فقر وبطالة، ومعاناة القطاع الصحي من غياب بنى تحتية وتراكم المشاكل ونقص الإمدادات والأجهزة والمعدات) وغياب الديمقراطية، فلا بد من مواجهة عدوى انتشار الوباء بالسخرية وعدم الهلع حتى تستطيع التغلب عليها نفسيا؛ فهي فرصة لإيجاد روح الدعابة وانتقاد الذات.

فقد رسمت الفكاهة والسخرية، في التعامل مع هذا الوباء في العالم العربي، حدود الوعي الجمعي على المستوى الاجتماعي والسياسي والثقافي في المجتمعات، وما تزال النكتة الجماعية تجمع الشعوب وتقرب فيما بينها رغم اختلاف المنابع والأصول والمعتقدات واللهجات، فشكلت سلاحاً في وجه الخوف والهلع من المرض، وأكدت أننا جميعاً متشابهون في الألم والمحنة، ومواجهة البلاء والوباء الذي لم يفرق بين أحد.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

ويسود ترقب داخل الرأي العام العربي (الخوف والسخرية) بسبب الإجراءات الحكومية المتسارعة من جهة، وسرعة انتشار الوباء على المستوى الدولي من جهة أخرى؛ فقد أُلغيت الملتقيات، ونظمت مباريات رياضية دون جمهور، وساد التعليم عن بعد وغير ذلك؛ ويبدو أن توجه شريحة من الناس إلى التنكيت (السخرية) في زمن الوباء، يجعل الأمر خطيراً¹⁵: تغيرات جارفة، وتحولات ثقافية وقيمية نتيجة عوامل عديدة؛ فالحكومات تسابق الزمن بقرارات متتابعة وفق مستجدات تطور الوباء، فكانت تزعم (بداية) الحفاظ على حياة المواطنين؛ ثم زعمت، بعد ذلك، الحفاظ على الاقتصاد.

(4) ملابسات ظهور خطابات السخرية من الوباء:

قبل الحديث عن رأسمالية التنظيم ورأسمالية الوباء، تجدر الإشارة إلى بعض الأشياء التي أثرت سابقاً، لأن الهدف من تكرار بعض معانيها يتجلى في استعادة الخيط الناظم لهذه الدراسة: من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء؛ بل يتوجب التركيز على خطاب السخرية الذي يُعبر كثيراً عن التطورات الأخيرة في النظام الرأسمالي وما سببته من معاناة إنسانية في جميع أنحاء العالم حين اقترنت بالوباء.

نعود فنقول: إن الدراسات حول السخرية تعددت في بيئات اجتماعية متنوعة، ولوحظ أن الناس يسخرون عادة للاعتراض على أحوالهم المعيشية؛ فظهرت السخرية ضد القيود القانونية والثقافية للتعبير عن الرأي والاحتجاج والتمرد بهدف الخلاص من التحكّم السلطويّ والانصياع والرغبة في الانعتاق.

ويسخر الساخر من عوامل التآكل الاجتماعي لأنه يضع المشاكل الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية نصب عينيه لمواجهة مشروعية السلطة وتحكمها بخطابات الشرعية الاجتماعية التي تشوّش عليها، وتجبرها على الاعتراف بالساخر، والانتباه إلى مضامين عروضه الفنيّة، وربما تهديده.

15 - إن تعميم حالة الطوارئ يجعل الناس يعتقدون بعد فترة معينة على المساس بالحرّيات. هنا يكمن الخطر.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

كيف اكتسبت السخرية، إذن، قوتها في شكل معارضة فعالة وسلطة مضادة للتعبير عن الرأي؟ كيف يملك التهمك السياسي "وظيفة تصحيحية" للبنية الاجتماعية والتأثير في الرأي العام؟ جاءت السخرية من مصدر "سَخِرَ"، وتعني الهُزء والتهمك، وممارستها هو ساخر، وموضوع السخرية هو "مسخور به (منه)"; وتعتبر السخرية في الأساس بأسلوب يهدف إلى الإضحاك، كما تحتوي في جزء كبير منها على نقد متنوع، سواء تعلق الأمر بنقد البشر (أفراد وجماعات) أو الحدث أو الواقع وغير ذلك؛ ويمكن أن تكون جارحة جدًا (مواجهة الواقع السياسي والتقاليد المجتمعية ومشاكلها بشكل عنيف).

ويجب التعامل مع السخرية في سياقها الذي أفرزها لأنها نقد بناء أو "جدي" يحتاج إلى مسؤولية كبيرة ووعي تام ضد واقع مليء بالمرارة السياسية والاجتماعية قصد تخفيف ثقله إيجاباً؛ لكن يجب تفادي السخرية التي تسهم في تثبيت مرارة هذا الواقع وتكريسه عندما يتعلق الأمر بالحياة الشخصية للناس أو أجسادهم أو أديانهم أو ميولاتهم الجنسية وغيرها. ويمكن القول: قد لا تكون الرأسمالية المتوحشة سبب ظهور الوباء، لكنها سبب استغلاله بشكل بشع إلى الدرجة التي اقتترنت فيه برأسمالية الوباء مما يستلزم أخذ هذه التطورات بعين الاعتبار.

أ) رأسمالية التنظيم: تحكم النظام الرأسمالي بصورة شبه تامة في العالم، وتركزت معظم موارد الكوكب بين أيدي أقل من 1% من سكانه؛ فكيف حدث ذلك في تاريخ الرأسمالية التي عرفت أزمات متتالية في مسيرتها الطويلة؟

كلما تطورت الرأسمالية إلا جابهتها أزمات حادة؛ ورغم ذلك، لم ينقرض النظام الاقتصادي الرأسمالي كما انقرضت أنظمة اقتصادية أخرى سبقته أو عاصرته؛ ويعود سبب مقاومة الأزمات إلى قدرة هذا النظام على إيجاد الحلول المناسبة لها على حساب مصالح طبقات اجتماعية كثيرة؛ وهكذا ظهر في فترة تاريخية معينة ما يسمى "رأسمالية التنظيم الذاتي" التي تخلصت من مظاهر العجز الكثيرة التي عاقت مسيرة الرأسمالية ضد الفكرة القائلة إن الإمبريالية هي أعلى مراحل هذه الرأسمالية؛ وعندما اجتاحت وباء كوفيد 19 مناطق العالم وتوالت الأزمات، لاحظنا استعادة بعض طرق التفكير التي ارتبطت برأسمالية التنظيم، مثل ما صرح به وزير المالية



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

الفرنسي حين قال إن بلاده ستخذ كافة الإجراءات الاقتصادية لضمان عدم انهيار الشركات الفرنسية الكبرى، ومنها تأميم تلك الشركات لتعود إلى ملكية الدولة. فهل تكون هذه الخطوة الإجراء الأول الذي يسعى إلى تهذيب الرأسمالية أو حتى القضاء عليها بعد أن توحشت كثيرا؟

لقد كان هدف التنظيم دائما حماية الرأسمالية من الأزمات التي تلحق بها رغم أن هذه الجهود لم تمنع تدهور الفرد وضمحلالة، فانتقلت هذه الصورة المأساوية إلى الأدب الذي خلد هذه اللحظات العصبية بظهور تيار العبث؛ ونشأت سخرية جديدة في شكل القطيعة اللامتجاوزة بين الذات والواقع، لتصبح نوعا من الوعي الشقي حسب تعبير هيجل؛ وتنتج السخرية المرتبطة بالرأسمالية عن علاقات الاستلاب والاعتراب التي تربط العمال بما يصنعونه بسبب وساطة المال. ففي زمن الوباء شكلت الهوة بين التوقع والواقع أساس العلاقات الغريبة التي ما فتى النظام الرأسمالي يُرسخها في المجتمعات، وأصبحت السخرية محاولة لتحسين الذات ضد الرأسمالية؛ وكانت تظهر إلى الوجود حين نكون مرغمين على "إعادة ضبط" رؤيتنا للكون وافتراضاتنا حوله كأنها تسدّ الثغرة بين المنطق واللامنطق أو بين الفكرة والواقع أو بين المنتظر والحدث المُخَيَّب (التوحش الرأسمالي)؛ ويمكن القول إن السخرية هي تعبير عن خلل يستلزم التصدي له من أجل الانسجام مع الواقع المرير وإعطائه معنى؛ فالسخرية هي فنّ الوجود على قيد الحياة وفن المقاومة كلما اشتدت الأزمات الرأسمالية رغم محاولات تنظيمها التي لم تكن يوما في صالح الفئات الهشة: استأنف المغرب نشاطه الاقتصادي بعد تطبيق حزمة من التدابير الوقائية والتنظيمية، فكانت النتائج سلبية لأن الأمر نقل الرأسمالية من مرحلة التوحش إلى مرحلة الوباء؛ فقد حدث أن أصيب عمال "الفرولة"¹⁶ بمدينة القنيطرة بالوباء بأعداد كبيرة مما يطرح التساؤل التالي: هل يتوجب علينا التضحية بصحة المواطن لصالح صحة الرأسمال؟؛ أجابت الولايات المتحدة بصراحة عن هذا التساؤل في شخص رئيسها دونالد ترامب: نعم صحة الرأسمال أولى.

¹⁶ - ظهرت نكات من قبيل: "نطالب بإرجاع الجهة القديمة (الرباط سلا زمور زعير) لتعوض الجهة الجديدة (الرباط سلا القنيطرة)؛ أزيلوا القنيطرة مصدر المشاكل"/ "إذا أكلت الفرولة هذه السنة، ستمضي العطلة في ابن جريز (إشارة إلى مركز الحجر الصحي)".



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

وفي النهاية يمكن القول إن فعل السخرية، الذي يعد تصرفاً نفسياً وعقلياً منطوقاً، ربما يحوي على معاني وأسرار كثيرة في صورة معتادة لا تزيد عن مجرد كونها جملة تخرج من لسان صاحبها، فتحدث أزمات وكوارث، أو تحدث الكثير من الضحك والصخب المرح الذي لا ينتهي في الأمد القريب. ونعلم بالطبع أن الضحك هو وسيلة علاجية معتمدة خصوصاً في إزالة اضطراب ما بعد الصدمة، كما أنه عنصر مساعد في التغلب على القلق والاكتئاب.

(ب) رأسمالية الوباء: عندما تتوحش الرأسمالية وتسيء استغلال العمال والضعفاء والموارد، فإن الأجور تنخفض إلى أدنى مستوى وترتفع معدلات البطالة وتندنى معايير عدالة توزيع الثروة والدخل، ويكثر الفقر وتزداد الجريمة وتنتشر الأمراض والتلوث والإضرار بالبيئة. وتقود شراسة النظام الرأسمالي إلى إلحاق الضرر بالإنسانية، وإيقاع الأزمات، والقتال، والحروب، والجرائم غير الأخلاقية بشتى أصنافها؛ ثم تتدخل الحكومات وسيطا ماكرا يدعي وضع ضوابط لتصرفات الاستغلاليين والمبتزين ومنع تحول العالم إلى غابة والحد من شراسة النظام الرأسمالي وضمان العدالة الاجتماعية بين شرائح السكان المختلفة.

ويُرجع بعض منتقدي الرأسمالية توحش النظام الرأسمالي وسعيه المستمر إلى تعظيم الأرباح مهما كانت تكاليف وخسائر الغير إلى ظهور فيروس كورونا؛ ويعتقدون أن الرأسمالية المتوحشة سهلت انتشار المرض في أرجاء العالم¹⁷ حيث هونت في البداية من خطورته؛ وضغط أصحاب النفوذ على الحكومات لتجنب فرض القيود والحد من التدخل في تدفق السلع وتنقل الأشخاص داخل البلدان وحول العالم. واستغلت الرأسمالية الشرسة هذا الظرف الطارئ للحصول على مكاسب أو تعويضات غير مستحقة. ويكثر جشع بعض الشركات والمؤسسات في الأزمات من خلال مطالبات منمقة ومدعومة ببراهين مزيفة عن خسائر للحصول على دعم حكومي ضخمة. وقد خصصت دول عديدة أموالاً طائلة لدعم الأسواق وقطاعات الأعمال، بينما تصاعدت معدلات البطالة، فتعرض

17 _ فداحة الوباء وسرعة انتشاره وعدم وجود لقاح حتى الآن ولا ينتظر التوصل إليه قبل عام أو عام ونصف - بحسب السلطات الصحية الدولية - تمثل عبئاً هائلاً على الأنظمة الصحية في الدول الرأسمالية المتقدمة، ما يطرح تساؤلات حول دور الحكومات في تلك الأنظمة في توفير الرعاية الصحية الجيدة لجميع المواطنين، بعد أن سيطر القطاع الخاص والشركات العملاقة التي تهدف لتحقيق الربح بالأساس وتقدم خدماتها لمن يقدر على دفع الثمن.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

جزء كبير من السكان لنقص حاد في الغذاء والمواد الأساس بسبب فقدان مصادر دخلهم. ويرى كثيرون ضرورة دعم الأسر المتضررة من هذه الجائحة، بدلا من مساعدة كبار المنتجين.

ويقود الفساد في كثير من الحكومات إلى تحالف مبطن بين بعض المؤسسات الحكومية والرأسماليين الشرسين الشيء الذي يولد معضلات كثيرة في المجتمعات والعالم أجمع ومحاباة الأسواق على حساب الناس؛ وتمكنت الشركات من زيادة الإنتاج بدافع الربح وتوفير فرص الشغل وأبدعت كثيرا مما قاد إلى نشأة الاحتكارات التجارية والمالية. وشجعت الحكومات هذه الشركات لأنها رفعت الإنتاج ووفرت مزيدا من الغذاء للسكان والوظائف.

ومن أبرز الممارسات الخاطئة للرأسمالية الجشعة¹⁸، استغلال الأمراض في تحقيق مكاسب وأرباح ضخمة: تضاعفت أسعار مواد الوقاية من المرض في الأسواق، وتفرخت أسواق سوداء، واحتكرت الأطعمة والمواد الضرورية من أجل تحقيق أرباح فاحشة وسريعة، وضغطت شركات الأدوية من أجل الحصول على منح ودعم لتطوير لقاحات وأدوية بينما تعارض أي تحديد لأسعارها، وانخفض نمو الإنفاق الحكومي على الرعاية الصحية من خلال تحميل الشعوب نفقات مواجهة وباء كوفيد 19، وغابت الأنظمة الصحية أو نقصت فاعليتها بسبب الرأسمالية الشرسة التي تستغل الطلب المرتفع على الرعاية الصحية لتحقيق أرباح فاحشة مما وجه انتقادات للحكومات بفشل أنظمتها الصحية في مواجهة الوباء الذي أضعفها وجعلها عاجزة عن توفير الأجهزة والمواد والمستلزمات الطبية وقت الحاجة. وأمام هذا الواقع المرير، يسخر المستضعفون ممن يقهرهم.

18 - في قلب محنة كورونا، استمر صندوق النقد في تقديم "النصائح" إلى 12 دولة من الشرق الأوسط استنجدت به لإنقاذها. وحث الصندوق في تقرير له حكومات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على مواصلة تقديم حزم الدعم المالي والاقتصادي لمنع الأزمة من التطور إلى ركود طويل الأمد مما سيؤدي إلى ارتفاع معدلات البطالة.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

خاتمة

إن الخطابات الساخرة ما هي إلا رسائل مشفرة، يخاطر المرء حين يرسلها لأن المتلقي قد يكون جهة متسلطة؛ فلا يمكن انتهاج السخرية مع الشخصيات الحساسة أو أصحاب المناصب الرفيعة أو مع أي شخص يعجز الساخر عن تقدير رد فعله بدقة؛ فكيف سيكون الأمر إذا كنا نواجه شراسة الرأسمالية؟: نواجهها بنوع من التهمك قصد مهاجمة الذين يهددون الحياة بصفة عامة.

ويحق أن نتساءل أيضا: كم مرة جعلتنا السخرية نتجاوز مشكلةً معينة؟ يُقال إننا حين نسخر من أمرٍ ما، نتخطاه، ويصبح خلفنا، فيُنصح بالسخرية من الصدمات والخيبات علاجاً فعّالاً (ليس وحده بالطبع)؛ فنحن ندين للسخرية باللحظات الوحيدة الحقيقية للنصر في المواجهة؛ فهي إعلان الكرامة، وتأكيد تفوق الإنسان على ما يحدث له؛ وتتحول هذه السخرية إلى جريمة تعرض الساخر إلى حملات تهديد أو مساءلة قانونية.

وإذا كانت السخرية دفاعاً فعّالاً، فهي كذلك نضال مستميت ومواجهة حقيقية في صد المعتدي وتقويض مساعيه. وتزدهر السخرية كلما كانت السلطة قمعية مما يجعلها اختياراً ضرورياً تستعمله الفئات الضعيفة، ويجعلها أداة رئيسة للدفاع عن الطبقات المقهورة التي تكون ملزمة باتخاذ الحيطة اتجاه نوايا الآخر المتربص.

وتشجع السخرية على نشوء حرية الرأي وتطورها بخصوص معتقدات الأفراد في ما يتعلق بجائحة كورونا، إذ تقوت وجهة نظر ترى أن ما يحدث من اضطراب هو مجرد مؤامرة؛ فالوباء حقيقي، لكنه ينحدر من الصناعة المختبرية الغربية (فيروس مخبري صناعي)؛ ويشرح المدافعون عن فكرة المؤامرة آراءهم كما يلي: لقد أسست وكالة الطوارئ الفيدرالية FEMA في الولايات المتحدة الأمريكية تحت غطاء التكفل بأعمال الإغاثة؛ غير أنها تسعى إلى إقامة النظام العالمي الجديد من خلال سياسة رأسمالية نافذة تتضمن بيل جيتس ومليارديرات جميع أنحاء العالم الذين يقفون إلى جانب الرئيس الأمريكي دونالد ترامت ويشكلون المخطط البوائي كوفيد 19 الذي لم يكن وباء حقيقياً؛ لأن وزير الخارجية الأمريكي، في شهر مارس 2020، قال في مؤتمر صحفي – إلى جانب الرئيس ترامب- إن كوفيد 19 هو تريبس حقيقي قصد تنفيذه بطريقة صحيحة (فلتة لسان)؛ ويعني التريبس، في نظر الأمريكيين، محاكاة عسكرية؛ وهو تمرين بدأ منذ سنوات من أجل إقامة حكومة جديدة للعالم وإخراجها إلى حيز الوجود؛ إذن، لا يوجد مرض حقيقي بل يوجد مخطط كبير؛ فقد صرح بيل جيتس أننا سنعيش فترتين من الوباء، ولن يصبح الأمر طبيعياً حتى نحصل على لقاح رائع للعالم بأسره: هم يجعلون الناس يشعرون برعب حقيقي عبر الوباء المخطط له؛ إلا أنهم سيطلقون المرض الحقيقي الذي يتمثل في تحطيم المناعة بواسطة أشهر من الحجر الصحي



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

الذي يحرم الناس من الهواء النقي (نتنفس فقط ثاني أكسيد الكربون بسبب القناع)، وغياب الشمس، والعيش في الخوف والقلق الشديد؛ إذن، لن يتمتع الناس بصحة جيدة بعد الحجر الصحي حيث أصبح القناع رمزا للخضوع للأسياد (كان العبيد في الماضي يجبرون على ارتداء الأقنعة)؛ وعندما يخرج الناس في المرحلة القصيرة البينية (بين الفترتين من الوباء/ بين الموجة الأولى والثانية) يجدون أمامهم، في الولايات المتحدة، موصلات الجيل الخامس (الهاتف) التي وُضعت في غفلة منهم: هي تقنية تؤثر على صحة الناس بمجرد تشغيلها في جميع أنحاء العالم، فكان الوباء فكرة رائعة للإسراع في تنفيذ هذا المشروع؛ وسيصبح جميع الناس مرضى بسبب هذه التقنية (الفيروس الجديد التي يفرض الرعب)؛ وحتما ستظهر اللقاحات ضد وباء كوفيد 19 بعد نشر تقنية الجيل الخامس، وسيصرح بيل جيتس بأن اللقاح أمر بالغ الأهمية ضد ارتداد المرض الخطير، بل سيسعى إلى تحقيق أرباح (استخلاص ملايين الدولارات) أيضا بمساعدة وسائل الإعلام الرسمية والنخبة الغنية واللجنة الثلاثية ومجتمع بلديبرغ¹⁹ وغير ذلك.

وإذا زرت الكثير من المستشفيات، في الولايات المتحدة الأمريكية، ستجدها تُبالغ في إحصاء موتى كوفيد 19؛ غير أن كورونا هي أنفلونزا برد، ونتعرض جميعا للإصابة بهذا الفيروس وغيره؛ ستوهم المستشفيات الناس بالمرض، فيتساقون، في طوابير لا نهائية، إلى تلقي اللقاح الذي يجعلهم حطب سياسة التقليل من سكان العالم التي أسست عندما دمرت السلسلة الغذائية للإنسان من خلال بحوث مشبوهة في الغرس والنباتات والحيوانات (التهجين/ الاستنساخ) وغيرها؛ إذن، ترسخ سياسة الإبادة عبر مراحل حتى لا يحس الناس بالصدمة دفعة واحدة؛ ولهذا السبب، أعلن الرئيس ترامب في 13 مارس حالة الطوارئ لأنه كان خاضعا لأجندة تتجاوزته وجعلته يُسلم أمريكا إلى وكالة الطوارئ الفيدرالية FEMA.

وتعود هذه الآراء التي تعبر عن فكرة المؤامرة وغيرها إلى الاندماج من جديد في السخرية من خلال دورة ثقافية حيوية تنمو مثل كرة الثلج المتدحرجة، فتتقوى من جديد روح الدعابة؛ وعندما تصبح هذه "الدعابة أشد من السيف"، فإن السلطة تخشاهما، وتحول دون السماح بظهورها، وتقمع رغبات الناس وأحلامهم وانفعالاتهم وحاجاتهم وأحاسيسهم. والسلطة القمعية نفسها تُدرك، تمامًا، ذلك القول المتداول، الذي يُفيد بأن "حرية أي شعب تُقاس بمدى قوة ضحكته" الأمر الذي يدفعها إلى إحكام قبضتها القمعية تحسبًا لكل ما يهدد نظامها ويخلخله. وإن لم يكن نظامك قويًا بما يكفي للتعامل مع النكات، فليس نظاما ديموقراطيًا لأن القوة لن تكون

¹⁹ - تأسس مؤتمر بلديبرغ أو نادي بلديبرغ منذ عام 1954 لتعزيز الحوار بين أوروبا وأمريكا الشمالية حول الرأسمالية الغربية للسوق الحر ومصالحها حول العالم.



من خطابات الضحك والسخرية في سياق رأسمالية الوباء

بطشًا، بل ثقة في النفس، وحسن قيادة مبنية على ركائز ديمقراطية عادلة؛ ومن ثم، يلجأ الجمهور إلى الضحك والسخرية للحفاظ على وعي نقدي وسط أنظمة رأسمالية تسعى إلى بناء إنسان ذي بعد واحد: البعد الاستهلاكي.



لائحة المراجع

- 1) Basu, S, "Dilogic ethics and the virtue of humor", Blackwell Publishing Ltd, Journal of Political Philosophy, Vol. 7, No. 4, December 1999, pages 378-403.
- 2) Billig, M., Laughter and ridicule: Towards a social critique of humour. London: Sage. ISBN (1-4129-1143-5), 2005.
- 3) Branko Milanovic "The Clash of Capitalisms: The Real Fight for the Global Economy's Future", Foreign Affairs, January/February 2020, pages 10-21.
- 4) Bricker, Victoria Reifler, The function of humor in Zinacantan, Journal of Anthropological Research, Vol. 36, No. 4, Winter, 1980, pages 411-418.
- 5) Buijzen, Moniek; Valkenburg, Patti M., "Developing a typology of humor in audiovisual media", Media Psychology, Vol. 6. 2004, Pages 147-16.
- 6) Christian Jarrett, How Many Psychologists Does It Take ... to Explain a Joke? in The Psychologist, Vol. 26, April 2013, pages 254-259.
- 7) Goldstein, Jeffrey H., et al., "Humour, Laughter, and Comedy. A Bibliography of Empirical and Nonempirical Analyses in the English Language." It's a Funny Thing, Humour. Ed. Antony J. Chapman and Hugh C. Foot. Oxford and New York: Pergamon Press, 1976, pages 469-504.
- 8) Hurley, Matthew M., Dennet, Daniel C., and Adams, Reginald B. Jr., Inside Jokes, Using Humor to Reverse-Engineer the Mind. Cambridge, Massachusetts: The MIT Press. ISBN (978-0-262-01582-0), 2011
- 9) Holland, Norman, "Bibliography of Theories of Humor." Laughing; A Psychology of Humor. Ithaca: Cornell UP, 1982, pages 209-223.
- 10) Martin, Rod A., , The Psychology Of Humour: An Integrative Approach. London, UK: Elsevier Academic Press.. ISBN (978-0-12-372564-6), 2007.
- 11) Matthew Gervais and David Sloan Wilson, The Evolution and Functions of Laughter and Humor: A Synthetic Approach. in Quarterly Review of Biology, Vol. 80, No. 4; December 2005, pages 395-430.
- 12) Mc Graw A. Peter and Caleb Warren, Benign Violations: Making Immoral Behavior Funny. in Psychological Science, Vol. 21, No.8, August 2010, pages 1141-1149 .
- 13) Mc Graw A. Peter, Too Close for Comfort, or Too Far to Care? Finding Humor in Distant Tragedies and Close Mishaps. in Psychological Science, Vol. 23, No. 10, October 2012, pages 1215-1223.
- 14) Mintz, Lawrence E., Humor in America: A Research Guide to Genres and Topics. Westport, CT: Greenwood, (ISBN 0-313-24551-7), 1988.
- 15) Mobbs, D., Greicius, M.D.; Abdel-Azim, E.; Menon, V., Reiss, A. L., "Humor modulates the mesolimbic reward centres", Neuron, 40, 2003, pages 1041-1048.



- 16) Nilsen, Don L. F., "Satire in American Literature", *Humor in American Literature: A Selected Annotated Bibliography*, New York: Garland, 1992, pages 543-48.
- 17) Nivoix, Marie-Claude, Lebreton, Philippe, *L'art de convaincre. Du bon usage des techniques d'influence*, Ed. Eyrolles, 2013.
- 18) Pogel, Nancy, and Paul P. Somers Jr., "Literary Humor", *Humor in America: A Research Guide to Genres and Topics*, Ed. Lawrence E. Mintz. London: Greenwood, 1988, pages 1-34.
- 19) Robert R. Provine, *Laughing, Tickling, and the Evolution of Speech and Self*. in *Current Directions in Psychological Science*, Vol. 13, No. 6, December 2004, pages 215-218.